الهوية وأزمة الانتماء في رواية الاقليات العربية

أ.م.د. كرنفال أيوب محسن ليلى عبود خلف

جامعة بغداد/ كلية الآداب

aldalimelayla@gmail.com

الملخص:

تعد قضية الانتماء من القضايا التي تناولتها الرواية العربية وبخاصة الروايات التي عالجت موضوعة قضايا الاقليات واظهرت انساق الانتماء الوجودي للوطن من عدمه. إذ تعاني الجماعات الأقلوية في الوطن العربي من أزمة هوية وانتماء تتميز بطابعي العمق والشمول، وترجع هذه الأزمة إلى وجود الفرد الأقلوي في ظل كيانات مجتمعية متعارضة تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً، لتنتهي بالدين والقومية في أحايين كثيرة.

الكلمات المفتاحية: (الهوية، الأزمة، الانتماء، الرواية، الأقليات العربية).

Identity and the crisis of belonging in the Arab minorities novel

Dr. Karnafal Ayuwb Muhsin Laila Abboud Khalaf

University of Baghdad/ College of Arts

Abstract:

The issue of belonging is one of the issues dealt with in the Arabic novel, especially the novels that dealt with the issue of minority issues and showed the patterns of existential belonging to the homeland or not. Minority groups in the Arab world suffer from a crisis of identity and belonging that is characterized by depth and comprehensiveness, This crisis is due to the existence of the minority individual in the shadow of conflicting societal entities that begin with the tribe and the sect at times. To end with religion and nationalism in many cases.

Keywords: (identity, crisis, belonging, novel, Arab minorities).

المقدمة:

لا شك أن مفهوم الهوية شديد التعلق بمسألة الانتماء، وقد هذه القضية مساحة واسعة في السرد العربي؛ عبر تناولها للموضوعات البارزة وتحبيكها سردياً، واظهار حقيقة الانتماء الوجودي للوطن من عدمه. إذ تعاني الجماعات الأقلوية في الوطن العربي من أزمة هوية وانتماء تتميز بطابعي العمق والشمول، وترجع هذه الأزمة إلى وجود الفرد الأقلوي في ظل كيانات مجتمعية متعارضة تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً ، لتنتهي بالدين والقومية في أحايين كثيرة.

الهوية وأزمة الانتماء

إن الوطن العربي كما تشير إحدى الدراسات العربية(وطفة، ٢٠١٣: ١٥٣) "كيان مركب معقد، تتداخل فيع عناصر الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة"(التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي ، ١٩٩١: ٣٧)، وهذا بدوره أدى الى تولد أزمة حقيقية للجماعات الأقلوية تمثلت بتحديات كبيرة اضطروا لمواجهتها؛ للمحافظة على جذورهم وامتدادها داخل كيان سعى مراراً لإقتلاعها. فالانتماء هو "**ارتباط الفرد بجماعته؛ إذْ يرغب الفرد في الانتماء إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوجد نفسه بها مثل الأسرة أو النادي أو الشركة**" (زكي، ١٩٧٨: ٢٠٧). وهو يتوافر على "**طاقة علمية كاشفة في مستوى الحياة الاجتماعية برمتها، حيث تتعدى طاقته الكشفية هذه حدود السياسية والدين إلى مختلف التخوم الاجتماعية التي تحيط بالوجود الإنساني**".

(وطفة، ٢٠١٣: ١٦٥)

فالانتماء للفرد الأقلوي كما سنرى بعد قليل وعبر مقاربة الباحثة للروايات عينة البحث، يتخذ صوراً عدة لعل أبرزها، الانتماء الوطني والديني، فضلاً عن القومي والعرقي، وأحياناً يكون الانتماء آيديولوجي وأياً كانت صورة وشكل هذا الانتماء، فهو يتمثل بحالة احساس الفرد بالرغبة الى الانضمام أو الانخراط في مجموعة، ويمثل علاقة شعورية شخصية إيجابية، يقوم الفرد بتكوينها وبنائها مع أفراد أو مجموعة ما أما فيما يخص الانتماء الوطني فهو حالة من الاحساس بالانضمام الى الوطن وبناء علاقة ايجابية معه، والوصول الى أعلى درجات الولاء والاخلاص له (الحمزة، موقع العربية الالكتروني).

وتعد موضوعة الانتماء في الوطن العربي من الموضوعات التي لها أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهي أيضاً مسألة شائكة ومعقدة أحياناً، بخاصة أن الكثير من الالتباسات رافقتها، فلو أخضعنا هذا المقياس السوسيو–ثقافي السيكولوجي على الواقع العربي. لتبين لنا أن الانتماء يتراوح بين الانتماء الى الوطن والأرض وبين الانتماء الى النسب والقبيلة أو العشيرة، إذ تتقدم هذه الثلاثة–النسب والقبيلة والعشيرة–على الأولى –

الوطن–، ويبرز هذا الأمر بشكل واضح وملموس، حين تغيب الدولة ومؤسساتها وعدم قدرتها على فرض النظام العام، وايضا نجده يبرز في أوقات الأزمات والحروب والفتن فيتراجع دور الدولة ومؤسساتها، لتتم العودة الى الأصول العشائرية والقبلية والجماعة، الأمر الذي يوجه الانتماء ويطبع الهوية بطابعه، لأنه يجد في هذه الأصول التي ذكرناها الأمن والقوة، في حين أن الوطن اثر غياب سلطة الدولة أو في ضعفها لا تمنحه هذا الشعور(شعبان، ٢٠١٧: ١٣٧–١٣٨).

إن الانتماء يشكل جذر الهوية الاجتماعية، إذ هو إجابة عن سؤال الهوية في صيغة من نحن؟ والانتماء يشكل مجموعة من الروابط التي تشد الفرد الى جماعة أو عقيدة أو فكرة آيديولوجية معينة، أو يشكل مجموعة الاحاسيس التي تربطه مع المجتمع.(وطفة، ٢٠١٣: ١٥٥)، وتجعله ينصهر و يتماهى معه. فالفرد يسعى في أغلب الاحيان الى أن تكون له جماعة أو مكون يشترك معها في جوانب وعناصر معينة، ويشعر معها بهويته دونما خوف. لذا " **يميل الأفراد في إطار علاقاتهم مع الآخرين إلى تعريف أنفسهم بهويتهم الاجتماعية، وذلك على نحو عفوي، ويعني ذلك بوساطة الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها**"(ميكشيللي، ١٩٩٣: ١١٧).

وبهذا الخصوص يرى أمين معلوف في كتابه هويات قاتلة، أن في العصور يوجد افراد يعدون أن هناك انتماءً واحداً مسيطراً، يفوق كل الانتماءات الأخرى وفي كل الظروف، إلى درجة أنه يحق لنا تسميته بـ(الهوية)، هذا الانتماء هو الدين للبعض، والوطن للبعض الأخر، ولكن ما أن نلتفت الى الصراعات الدائرة في عالمنا العربي لنرى أن أي انتماء لا يسود بشكل مطلق. فحينما يشعر الأفراد بأنهم مهددون بعقيدتهم يكون الانتماء الديني هو المختزل لهويتهم كلها. بيد لو كان التهديد موجه للغتهم الأم ومجموعتهم الاثنية هي التي طالها التهديد لقاتلوا بعنف ضد من يشتركون معهم بالدين(معلوف، ١٩٩٩: ١٦).

ولابد من الاشارة الى كتابين أشرا الى عدم الانتماء وهما للكاتب، (كولن ولسون)،إذ جاء كتابه الأول بعنوان، (اللامنتمي)، أما الثاني فقد كان بعنوان(ما بعد اللامنتمي)، وقد أشرنا الى هذين الكتابين نظراً لإثارتهما الجدل في الاوساط الثقافية والفكرية الغربية، والعربية،

يبحث المفكر كولن ولسون في كتابه (اللامنتمي)، التخلي عن الانتماءات الدينية أو العقائدية، أو الايديولوجية، عبر تحليله لكتابات عدد من المؤلفين من مثل ديستوفسكي، وكافكا، و ومنغواي، سارتر، كامو، نيتشه، وغيرهم. ويناقش الكتاب الثاني مسائل مهمة عن فكرة اللا معنى في القرن العشرين، إذ أنه توقع أن يوصف النصف الأول من القرن "**بأنه عصر اللا معنى، فقدان المعنى يجثم على أدبنا، وفننا، وفلسفتنا، أما المجتمع فعاجز عن العمل بمقتضى اللا معنى الإحساس بغربتهم عن المجتمع**" (ولسون، ١٩٨١: ١٥-١٦)، ويعرف ولسون اللا منتمي، على أنه" **الإنسان الذي يُدرك ما تنهض عليه الحياة من أساس واهٍ، والذي يشعر بأن الاضطراب، والفوضوية هما أعمق تجذراً من النظام الذي يومن به قومه**"(ولسون، ١٩٨١: ١٥-١٦).

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح الهوية شديد التعلق بمصطلح الانتماء، فهو يرتبط معه بعلاقة وطيدة، وتتجلى هذه العلاقة عبر الفرد بصفته ذاتاً ومجتمعه الذي ينتمي إليه ويستشعر بوجود وكيانه، أي -هويته- عبره. بصرف النظر عن طبيعة هذه العلاقة. إذ حاولت الرواية العربية تجليتها والقاء الضوء الفاحص عليها، لكونها من العلاقات التي أصبحت ظاهرة في المجتمعات العربية و حاولت الكثير من المجالات الثقافية والاجتماعية والادبية البحث فيها. إلا ان الرواية وبما تملك من مواصفات وميكانزمات استطاعت تعريتها وكشف أنساقها المخبؤة. وساعدها ذلك تنوع النتاج الروائي وتعدد بيئاته. إذ "**أخذت الرواية العربية تتمثل أشكال هذا النوع من الارتباطات واسبابها ونتائجها ، فضلا عن المأزق التي اخذت تهدد وجود الهويات بمختلف انواعها، التي دفعت الافراد الى البحث عن ملاذات اخرى خارج نطاق حدود وجودها الهوياتي المرجعي، لتدخل فضاءات مغايرة تخص الاخر لتنشأ اشكالات اخرى تتصل بمشكلة الانتماء والاستيعاب**".

(أيوب، مجلة الاستاذ، ١٩٩٧: ٣).

ومعلوم أن قضية الهوية وارتباطها بالانتماء، أكثر القضايا والموضوعات التي ناقشتها رواية الاقليات نظراً لأهمية هذه القضية وتجذرها في العربي منذ سنوات كثيرة، أنها طرحت في السنوات القليلة الماضية بصورة أكبر، ويبدو أن التحديات التي يعيشها أبناء الأقليات في

المجتمعات العربية ووقوعهم ضحية النزاعات والحروب والخلافات السياسية والحزبية، فضلاً عن انفتاح العالم على قضايا حقوق الإنسان والمهمشين هو ما دفع الكثير من الكتاب والروائيين الى تمثل هذه القضية في نصوصهم الروائية. لذا ستحاول الباحثة استقصاء هذه الموضوعة في مجموعة من النماذج الروائية العربية، لكي نقف على الأنساق المتوارية خلف النصوص الرواية في سبيل مقاربتها ثقافياً، ونتعرف على الكيفية التي تجلت فيها هذه الثيمة ولعلنا عند الحديث عن الانتماء يتبادر الى اذهاننا عدة مستويات له من مثل الانتماء للوطن وللدين، وللجماعة، أو الانتماءات الايديولوجية. **إذ " يكتسب الفرد في علاقته بجماعة الانتماء خصائص تميزه من الآخرين ،وهي لا تتكون صدفة ،أو في لحظة تاريخية ما، بل تتجمع عناصرها وتطبع الجماعة بطابعها على مدار التاريخ، يتجلى ذلك بتعبيرات خارجية وسلوكيات ظاهرة ، كالعادات والتقاليد والرموز واللهجة واللغة .أهم مكونات الهوية تلك التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة**" (عماد، ٢٠١٦: ١١). لذا أشار الخطاب الروائي إلى تشكل مشكلة الهوية والانتماء في أحضان بلاد المهجر، وما أفرزته هذه المشكلة من خلخلة للوجود الهوياتي ، عبر طرح مجموعة من الأسئلة (أيوب، مجلة الاستاذ، ١٩٩٧: ٣)، أفرزها الواقع الهوياتي الجديد.

ففي رواية (الحفيدة الامريكية) للروائية (إنعام كه جه جي)، تُطرح الكثير من القضايا التي لامست بشكل واضح قضايا ومشكلات عاشها أبناء الأقلية المسيحية في العراق، ولا سيما بعد احداث التغير التي تلت عام ٢٠٠٣، ومن رافقه من انفجار للوضع العراقي، على مستوى الأمن والتعايش المجتمعي بين المكونات العراقية، فضلاً عن الواقع المأزوم الذي عاشت هذه الأقلية داخل العراق وفي بلدان المهجر. إذ تنطوي أحداث على تمثيلات ذلك الواقع، عبر شخصيتها الرئيسة(زينة) وباقي شخصيات الرواية. إذ اظهرت هذه الأحداث عمق التماهي مع الهوية الوطنية عبر فضاء المهجر، الذي جسدته شخصية(بتول الساعور) والدة (زينة). ففي الحفل الذي أقيم بجامعة (وين ستيت) في مدينة ديترويت، الذي أُعد لمنح غير الأمريكيين القادمين لأمريكا الجنسية الأمريكية، والذي يتطلب ترديد القسم بالولاء لأمريكا والإخلاص لها نجد أن شخصية(بتول الساعور) عبرت بشكل واضح عن عدم

انتمائها الحقيقي لهذا البلد البديل، وأن الانتماء الحقيقي هو لبلدها الأصلي العراق الذي غادرته بعد حادث تعذيب زوجها المذيع في قناة العراق(صباح بهنام) من قبل أجهزة النظام البائد بدعوى التآمر على الحزب والثورة. " **هي وحدها التي لم تتهندم ،ولم تمر بقلم الكحل الأسود الرفيع على جفنيها العلويين، زينتها الوحيدة التي تتمسك بها. كانت قد ارتدت فستانها القديم الأزرق الواسع الذي نعرف حالما نراها فيه أننا في يوم التنظيفات الكبرى ... بتول لم تتهندم وتتزين مثل الآلاف الذين غصّت بهم المنطقة المحيطة بجامعة "وين ستيت " في ديترويت... كل واحد يرتدي أفضل ما يملك من ثياب، كأنه عيد، بل أندر من العيد لأنه لا يتكرر مرتين**" (كجه جي، ٢٠٠٩: ٢٨). على الرغم من أن لحظة الحصول على الجنسية هي من أشد اللحظات فرحاً على المغتربين، إلا أنها لم تكن كذلك لـ(بتول بهنام)، بل بالعكس كانت من أشد اللحظات حزناً وألماً على نفسها، لإحساسها بأن هويتها الجديدة المفترضة–الجنسية– ستنسخ هويتها العراقية الحقيقية حتى وإن كانت على شكل ورقة. "**مشت أمي مبتعدة عنا كمن تسير في جنازة. وجلست ملمومة على نفسها تحتضن حقيبتها اليدوية وكأنها تتستر على شيء ما في داخلها**"(كجه جي، ٢٠٠٩: ٢٨). هذا الشعور بالخجل والخيبة لشخصية(بتول الساعور) يمثل حالة الاندماج الروحي والانتماء العميق لكل الذكريات والأحداث التي تختزنها ذاكرتها المتعبة، التي تتماهى مع الوطن والارض، هذه المشاعر المركبة التي تمخضت لدى(بتول بهنام) تكشف عن حالة العزلة عن الوطن الجديد، والشعور المرير بفقدان الوطن وأنها الآن أصبحت خارج دائرته. "**حين بدأ مكبر الصوت ينقل خطاب حاكم الولاية وهو يقرأ النص الذي يعلن الولاء للأرض الجديدة، حين نهض حشد الرجال والنساء واقفين وارتفعت أصواتهم جميعاً مرددة وراءه عبارات القسم بانفعال وتوكيد... سمعت صوت أمي يتحشرج وكأنها تختنق ، والتفتُّ إليها ورأيت وجهها الأبيض الوديع وقد صار قرمزياً كمن داهمتها حمى، والدموع تهطل غزيرة من عينيها وتفرّ متبخرة من سخونة خديها... بينما الجموع تضع أيديها على مواضع قلوبها وتلهج بالنشيد الوطني الذي تعزفه فرقة الجاز : "يا رب أحفظ أميركا... غاد بلِس أميركا "**

وكان صوت السيدة العراقية بتول الساعور ،أمي، هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية: "سامحني يا أبي... يا بابا سامحني"(كجه جي، ٢٠٠٩: ٢٨-٢٣٩).

معلوم أنه متى ما يتمسك الفرد بلغته فهذه اشارة واضحة لتمسكه بانتمائه، إذ تمثل اللغة عمق الانصار بين الشخص وهويته الثقافية ولاسيما في مجتمع كالمجتمع العراقي الذي ينماز بتعدد إثنياته وطوائفه الدينية والعرقية. فاللغة العربية واللهجة العراقية تحديداً كانت الجسر الذي يربط بتول بهويتها الأم.

إن ملامح الانتماء الوطني للأرض الأم تجلت بتمسك العائلة باللغة العربية على الرغم من وجود لغة أخرى تمثل هوية لهذه العائلة لكونها من الديانة المسيحة وتمتلك فضلاً عن ذلك لغتها الخاصة التي تمثل هويتها وانتمائها الديني. **"لم أسمع والدتي تتحدث بغير اللهجة العراقية في البيت، رغم أن أبي كان يريدنا نتعلم أيضاً الآشورية، لغته الأُم. أما الإنكليزية فظلت لغة الشارع والعمل ونشرات الأخبار. نلوي فكوكنا وننطق بها، لحظة نضع الأقدام على عتبة المنزل. تدور سياراتنا بنا وباللغة الإنكليزية من شارع الى شارع..."** (كجه جي، ٢٠٠٩: ٢١).

إن عمق التماهي في الانتماء، نجده لدى شخصيات هذه الرواية، مع أنها قررت مغادرة العراق؛ إلا أن ذلك لا يمنع بأنهم يحملون الوطن في صدورهم وذاكرتهم. **"وأبي ليس بأعقل من أمي ، يجلس في سيارته الجديدة التي سيدفع أقساطها حتى آخر العمر ، وحالما يدير المفتاح يمد سبابته ليكبس على الأسطوانة. « بلادي وإن جارت علي عزيزة » . يهز رأسه طربا ولوعة ونحن في أول الصباح . لماذا ، إذا ، تركت البلاد التي تحب وجئت بنا إلى هنا؟ وكيف تكون تلك البلاد عزيزة وقد جارت عليك ، يا أبي ، وكشرت أسنانك أرعبتك وتجسست عليك ودجت كلابها فيك التقارير ؟ كلهم مجنون بها . يقولون إن ليلي في العراق مريضة . يتوارثون العبارة ويرددونها مثل تميمة من التمائم. فلا هم يشفون ولا ليلى تموت."** (كجه جي، ٢٠٠٩: ١٣٢) هذا الحنين للوطن الذي تلاشى فضائه الحقيقي، استدعى الذاكرة للشخصية لكي تُسقط عنها كل الأحداث المؤلمة وتحل محلها ذكريات

جميلة، دفعت بالشخصية الى نسيان كل من مر من مآسي العذابات التي لحقت بها في مكانها الأم.

لا شك أن النص الروائي يقدم التاريخ كأحد عناصر الحياة التي تشير إلى القضايا الفاعلة في تكوين البنية الثقافية– الاجتماعية، التي تجسد عبر تأكيد العادات المشتركة والطقوس والمعتقدات، وقد تشترك الحالتان الأخيرتان في تمثيل الهوية الوطنية إذا ما عددنا الهوية الثقافية إحدى تشكيلاتها(الأدهمي، ١٩٩٧: ٥٥)، وبتالي يتم تمثيل حالة الانتماء. "**رأيت شون وهاملتون وبيل يتسلون بأداء فصل تمثيل ، وسط حشد من المجندين والمجندات الذين يقهقهون بأصوات صاخبة(...)كان الأول يحمل مضرب بيسبول ويوجهه عمودية إلى جبهته. والآخر يولول وهو يرفع يده اليمنى ويهوي بها على صدره في إيقاع منتظم . أما ثالثهم فكان يقفز في مكانه وهو يكرر : « هيدا ... هيدا ... » . لم أفهم التمثيلية على الفور . ثم قيل لي إنهم عادوا للتو من دورية حراسة في الكاظمية حيث شاهدوا مراسم عاشوراء ، وها هم يقلدون ما رأوا. وفهمت أن بيل كان يصرخ « حيدر ... حيدر » ولكن بطريقته الخاصة . ينطقها كما سمعها ولا يدرك معناها (...) ضحكاتهم استفزتني رغم أن الدين لم يكن ديني .**" (كجه جي، ٢٠٠٩: ١١٩) هكذا يبدوا أن الوعي بالانتماء للبطلة لزنية كان نابعاً من التماهي الكامل هويتها الوطنية التي طغت على هويتها الفرعية." **لنقل إن وعيي تشكل على أصوات مؤذنيه . لذلك تصرفت مثل أي متطرف غيور على العقيدة . تعال يا شون نؤدي تمثيلية المصلين أمام حائط المبكى . أولئك الذين ينحنون ويعتدلون ثم ينحنون ويعتدلون(...) مثل اللعب الأوتوماتيكية . لم يكن صوتي هو الذي يخرج من بين شفتي لعله صوت أبي المذيع ، أو صوت طاووس ، أو المؤلفة التي تتقمصني وتقلد نبرتي**"(كجه جي، ٢٠٠٩: ١١٩–١٢٠). يبدو لنا عبر هذا النص عمق التماهي مع ثقافة الجماعة، فضلاً عن عمق الانتماء للبطلة مع مكونات المجتمع العراقي، بصرف النظر عن أي من المحددات الهوياتية.

وتبرز حالة الانتماء العميق، لدى شخصية أخرى من شخصيات الرواية ألا وهي شخصية (الجدة) التي رفضت بشكل قاطع فكرة وجود حفيدتها مع قوات الاحتلال الامريكي."

– هل نسيت يا زينة ؟ اليوم ستة كانون الثاني(...)عيد الجيش فهمت ما كانت تؤديه من طقوس . إنها تعيد ما كان زوجها يفعله عاما بعد عام في مثل هذا اليوم من السنة . ألم يواصل جدي يوسف الاحتفال بهذا العيد ، على طريقته ، بعد أن طردوه من الجيش ؟ ... أضع رأسي في حجرها وأتركها تلقي علي دروسها المضمخة برائحة العراق. تحفر في ذاكرتها لكي تعثر على كل الأمثلة ووسائل الايضاح. تقول لي إن تاريخ عائلتي ماثل هنا . بصمة دمي وعظام أجدادي." (كجه جي، ٢٠٠٩: ١١٩–٨٩) .

لا ريب أن النص الروائي يتوافر على مساحة تؤهله على طرح أسئلة شتى، في ضوء الوضع الرهن، وقدرة عالية على الحديث عن المسكوت عنه، فهو يقدم البنية الثقافية والاجتماعية، في حركتها داخل المجتمعات، بطرق مختلفة، ليس أقلها الذاكرة الجمعية.

وفي رواية أخرى تتضح علاقة الانتماء للأرض والحرص على البقاء على الرغم من كل الظروف والمحن التي رافقت تأريخ الأقليات في العالم العربي. ففي رواية (فرنكشتاين في بغداد)، يتجلى الانتماء بأعلى درجاته، كما نرى عبر هذا النص لشخصية ولوعي الأب (يوشيّا) الذي يؤمن بحق المسيحيين في الوجود على أرض العراق، ويرفض بشكل كبير فكرة الهجرة منه." **وكان الأب يوشا يشجعها، فهو يرى في ذلك واجباً دينياً، ليس من الجيد أن يخرج الجميع من البلد. لم تمر أحداث أفضل على الآشوريين في القرون السابقة. ولكنهم بقوا ها هنا وأستمروا في الوجود. على أحدنا ألا يفكر بنفسه فقط. هكذا كان يقول في عظته أحياناً"**(سعداوي، ٢٠١٣: ٧٥).

لا شك أن خيار البقاء لو كان في ظل ظروف عادية وطبيعية لما شكل أهمية كبيرة في مسألة الانتماء، إلا أنه في ظل هذا الترويع والتكفير والعنف والارهاب الذي كان يستهدف أبناء الأقليات من دون تمييز، أصبحت له هذه القيمة التي أضفت معنى الانتماء الحقيقي. **"طلب منها الأب يوشيّا استضافة عائلة سنخيرو التي هربت من التطهير الطائفي في حي الدورة جنوبي بغداد. شغلت العائلة ذات الغرفة التي كانت تقيم فيها عائلة نينوس ملكو، ولم يتأخروا إلا بضعة أسابيع قبل أن يغادروا إلى سوريا ليطلبوا الهجرة إلى أوربا"**(سعداوي، ٢٠١٣: ٧٥).

لقد أثبت هذه الرواية مدى اللحمة الوطنية لأبناء العراق من كل طوائفهم وقومياتهم وديانتهم، عبر متخيل فانتازي، عبرت عنه شخصية(الشسمه) التي أوجدها (هادي العتاك)،عندما قام بجمع أعضاء من جثث مختلفة الانتماءات. **"أنا، ولأني مكوَّن من جذاذات بشرية تعود إلى مكونات وأعراق وقبائل وأجناس وخلفيات اجتماعية متباينة، أمثِّل هذه الخلطة المستحيلة التي لم تتحقق سابقاً. أنا المواطن العراقي الأول، هكذا يرى"**(سعداوي، ٢٠١٣: ١٦١).

هذا التشكل الهوياتي المتعدد الذي مثلته شخصية (الشسمه)، عبر عن عمق الانتماء الذي يشعر به أبناء المكونات العراقية لبلدهم، وأيضاً حجم التلاحم في سبيل القضاء على كل أشكال العنف والارهاب التي مورست ضدهم. **"لقد قتل أبو زيدون انتقاماً لدانيال تيداروس، وقتل ذلك الضابط في بيت القحاب لأنه تسبب بمقتل ضحية أخذ هادي العتاك بعض أصابعها وركَّبها لجسد الشسمة .وهو مستمر لعمله هذا حتى النهاية.**

-وما هي النهاية؟ أين يمكن أن ينتهي؟ سأل محمود فصمت هادي العتاك قليلاً ثم أجاب:

-يقتلهم جميعاً. جميع المجرمين الذين أجرموا بحقه"(سعداوي، ٢٠١٣: ١٤٦).

وفي رواية (اليهودي الأخير) لروائي (عبد الجبار ناصر) تمثلت حالة انتماء اليهود العراقيين عبر مواقف شخصية الدكتور (ناجي نعيم) الذي لم يستجب للمضايقات وأعمال العنف التي مورست تجاه اليهود، فقد فضل البقاء والتمسك بهويته العراقية، إذ لم تكن العلاقة بين المكونات العراقية مبنية على أسس وحدود هوياتية بل كان الطابع الوطني هو الذي يغلف تلك العلاقة وهذا" **لأمر لا يمكن قراءته خارج اطار تشكيلة المجتمع العراقي القائم على التعدد والتنوع <الجامع> بمعناه العام الاشمل"**(العيبي، ٢٠١١: ١٤٨). **وهو ما جسده هذا النص لشخصية الدكتور(ناجي نعيم)."الناس هنا على فطرتهم، لا يفرقون بين شيعي وسني ولا بين مسلم ويهودي وصابئي ونصراني إنهم أهل غيرة يتشاركون في الحلو والمر"**(ناصر، ٢٠١٤: ٤٨)، لذا نجد الشخصية تتماهى مع شعور الانتماء، عبر خيار البقاء في ظل المعاناة والازمة التي يمر بها اليهود بسبب ممارسات السلطة آنذاك. وهذا ما نجده جلياً عبر هذا المشهد بينه وبين صديقه (سامي)" (ناصر، ٢٠١٤: ١٢٨).

هنا يكشف الدكتور(ناجي) عن منظوره تجاه الهوية والانتماء بمعناه الحقيقي. "**الناس يحملون في دواخلهم ليس في العراق بل في الوطن العربي كله انتماءات متباينة من الطبيعي أن يكون، ذلك، لكن تحديد الهوية بانتماء واحد ضرر للجميع. لقد تجذر فينا الانتماء الى المذهب والقبيلة أكثر من أي شيء آخر . ما يجمعنا حقا هويتنا الإنسانية**" (ناصر، ٢٠١٤: ١٢٩).

ويبدو أن عمق روح الانتماء يرجع أيضاً إلى أسلوب الحياة في العراق، إذ إن أسلوب الحياة في العراق أسلوب حياة عربي عراقي، على عكس اليهود في مصر على سبيل المثال، فلا توجد فيه طبقة برجوزية يهودية لها طبيعتها الخاصة في أساليب الحياة، وتتعامل بلغة أوربية ولا تختلط مع محيطها العربي المصري. إذ أن اللغة التي يتكلم بها اليهود العراق جميعهم هي اللغة العربية.

ونجد حالة الانتماء لليهود المصريين ، عبر رواية الجاسوس، إذ تطرح الرواية حالة الانتماء عبر شخصية(شحاتة هارون) التي تمثل حالة الإنسان المنتمي لوطنه بصرف النظر عن كل التهديدات والتحديات التي واجهها. مثلما يعبر عنها هذا النص:"**أنا عارف، بس أروح فين ؟ ما أقدرش أسيب مصر (...) أسيب البلد اللي اتربيت فيها وأروح لهلاكي (...)أسيب جيراني يا عم كامل أفندي ، والست فضيلة ، وحكمت هانم، صحيح عدد كبير من اليهود هاجروا لإسرائيل ، وساعدتهم المنظمة اليهودية في ده ، بس أنا مش قادر ، يا سيدي إحنا حوالي مائة ألف ، بناقص واحد(...)، مش مهاجر يا أخي !!**" (عبد يسري، ٢٠٠٨: ١٩). يبدو واضحاً عبر هذا النص كيف أن الاحساس بالانتماء الذي عبرت عن الشخصية اليهودية، لا يمكن" **أن يوجد بعيداً عن دائرة المشاعر المكونة لشعور الهوية؛ فهو يرتبط بالشعور الخاص بالقيمة وشعور الثقة بالنفس**"(ميكشيللي، ١٩٩٣: ٧٦). الذي ولده انصهار الهوية الفردية مع الهوية الجماعية، متجاوزاً محددات الدين والطائفة وذلك لأن" **روح الجماعة ، مهما يكن شكلها سواء أكانت الطبقة، أو الفئة، أو الفريق، أو العشيرة، أو العائلة؛ هي قبل كل شيء شعور بالانتماء**"(ميكشيللي، ١٩٩٣: ٧٦). وبهذا يؤكد البطل مدى التماهي مع الهوية العربية المصرية على الرغم من كل ما تعرض له من

تهديدات، عن طريق المنظمة الصهيونية. "**هاجر يا شحاته مع الفوج اللي رايح اليونان (...) الاجتماع الساعة ١١ بالليل في شيزا – ش عدلي – جنب المعبد يوم ١ فبراير .**" (عبد يسري، ٢٠٠٨: ٥٦) يرفض البطل الهجرة ويصر على البقاء في مصر وعدم التخلي عنها: " **كلام فاضي؛ أسيب مصر، وأروح الحنفي .. ما الناس شايفة إيه اللي بيحصل لليهود في أوروبا ، أو حتى في إسرائيل أروح أبتدي حياة من أول وجديد مع واحد من إثيوبيا، وواحد من روسيا ، وواحد من العراق(...) هتفاهم معاهم ازاي، وأروح أبقى مواطن من الدرجة الثانية.. طب وعلى إيه**"(عبد يسري، ٢٠٠٨: ٥٧). هذا الاندماج داخل المجتمع المصري الذي عبرت عن شخصية (هارون شحاته)،إذ هي تكشف عن نسق الانغماس الهوياتي لليهود المصرين في مجتمعهم المصري، فلم تثني التهديدات المتواترة للمنظمة الصهيونية عزيمتهم في التمسك بوجودهم داخل البيئة المسلمة –المجتمع المصري–. ومن هنا جاز لنا أن نقول الهوية عبارة عن "**منظومة من المعطيات المعنوية والاجتماعية التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظومة أن تكون في حيز الوجود ما لم يكن هناك شيء ما يعطيها وحدتها ومعناها، ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصة الإحساس بالهوية والشعور بها، فالإحساس بالهوية مركب من المشاعر المادية، ومركب من مشاعر الانتماء، والتكامل، والإحساس بالاستمرارية الزمنية، والتنوع، والقيم، والاستقلال، والثقة بالنفس، والإحساس بالوجود**"(ميكشيللي، ١٩٩٣: ٧٧).

أما في رواية(أبناء الماء)، والتي تحكي معاناة الأقلية الصابئية في العراق، إذ تبرز حالة الانتماء للوطن عبر أصرار والدة (ميران) أن تدفن في العراق، على الرغم من أن مغادرتها القسرية للعراق كانت بسب ما تعرضت له العائلة من تعذيب وعنف." **قبل أيام من وفاتها في الشتاء الماضي، أوصتني أمي بأن أرسل جثمانها، إذا جاء أجلها ، إلى العراق لدفنها جنب أبي وأخي في المقبرة المندائية**" (خضير، ٢٠١٦: ١٧٧). فكل سنوات الغربة لم تجعلها تنسى بلدها العراق التي عاشت على أرضه.

وفي رواية (حارس التبغ) لـ(علي بدر)، تتمسك (طاهرة) زوجة الشخصية الرئيسة في الرواية(حيدر سلمان) التي تنتمي للكرد الفيلية، بأرض العراق في لحظات احتضارها، على الرغم من حجم الدمار الذي لحقها جراء ممارسات السلطة القمعية آنذاك تجاها و تجاه عائلتها التي سفرت ورحلت من العراق؛ لأنها تعد تبعية إيرانية. "**أريدك أن تدفنني هنا.. أريد أن أدفن في العراق، لا أدفن في إيران(...)" قال لها لا: "سأحملك إلى طهران". " اسمع أنا ميته(...) ادفني هنا" كانت تعبيرات وجهها تدل على أنها تموت، بعد نصف ساعة غابت عن الوعي تماماً(...)لم يكن يحس الاّ بشيء واحد هو ثقل في صدره كله، وقد أخذ يحفر التراب بيديه قبراً لها وقد ساعده بعض الرجال الواقفين بقربه، لم يكن هناك لا رفش ولا مسحاة ولا أي شيء(...)لقد حفروا ما يجعلها تحت الأرض فرموا عليها عباءة سوداء، وتم ردم التراب**" (بدر، ٢٠٠٩: ٢٣٢-٢٣٣)، هذا التمسك بالانتماء لـ(طاهرة) الايرانية المولد بالعراق على الرغم من محنة التهجير وفقدان ولدها التي ماتت حزناً عليه، يؤشر الى عمق حالة الانتماء والولاء للعراق.

إن قضية الانتماء تأخذ أشكالاً ومسارات متباينة، من حيث تباين درجات شدتها من فرد إلى آخر. وقد يتحدد ويتشكل الانتماء في بوتقة من الظروف والمؤثرات الخارجية والاجتماعية التي تحدد للفرد انتماءاته ونسق أولويات المشاعر الخاصة بهويته. وبهذا يمكن التمييز ما بين موضوعية الانتماء وصورته الذاتية التي تتعلق مشاعر الانتماء الذاتية.(وطفة، ٢٠١٣: ١٥٧).

ففي رواية(أنا وحاييم) لـ(الحبيب السائح) التي تحكي قصة شاب مسلم وهو (ارسلان) وشاب يهودي(حاييم) عاصرا حقبة الاحتلال الفرنسي. هذه الرواية تظهر الكثير من الأنساق المتعلقة بوجود الأقليات والاثنيات والطوائف في المجتمع الجزائري. وكيف يمكن لكل هذه المكونات أن تنصهر في بوتقة الدفاع عن الوطن والتشبث به في ظل الازمات والصراعات، وأن تتعايش جميعاً تحت لواء الوطن الذي يستوعب الاختلافات الهوياتية جميعها. إذ تظهر حالة الانتماء للجزائر عبر شخصية اليهودي(حاييم) والتي عبر عنها هذا الحوار." **تعرف يا أرسلان؟ كل يوم أزداد شعورا بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك. أحمل السلاح مثلك**

من أجل شعب يستحق الحياة!(...) ولكنك هنا في صيدليتك تقدّم ما يسند السلاح. ولولاك ما كانت زليخة لتنجو في تلك الليلة، أجبته. فقد وجدته أمرا طبيعيا أن يرد حاييم بأنه لا يقوم بغير واجبه"(الحبيب السائح، ٢٠١٨: ١٨٨). من هذا الحوار بين ارسلان الذي ينخرط ضمن فصائل المقاومة والقتال ضد الاحتلال الفرنسي وبين حاييم الذي يشارك هو الآخر في هذا الواجب الوطني عبر توفير الأدوية للجرحى والمصابين في المعارك، تكشف عوالم الرواية عمق الانتماء، والقدرة على الاندماج مع المجموع والتعالي على الهويات المغلقة واظهار الانموذج اليهودي الذي يؤمن بولائه لوطنه وأرضه رافضاً فكرة الهجرة الى فلسطين، وفكرة التجنيس. "**حفل تسليم الإجازات كان بالنسبة إلي، الشفرة التي حزت الشعرة. فقد تم التنويه بي نموذجًا حيا على نجاح الاندماج في مجتمع الجزائر الفرنسية الجديد. وذلك يعني في المسكوت عنه تدجين الأنديجان لحظتها، ازددت شعورا بالوزر، لتجنس والدي و اعتباري، تبعا لذلك، فرنسيا**" (الحبيب السائح، ٢٠١٨: ٢٠٥).

إن الإحساس بالخجل الذي تولد لدى (حاييم) نابع من رفضه التمييز الذي يمارسه الفرنسيون على وفق الاعتبارات الدينية والاثنية، والايمان بأن ذلك ليس عادلاً على الرغم من تبريرات والده الذي يرى أن المسلمين هم أيضاً مارسوا هذا الاقصاء على يهود الجزائر في حقب سابقة."**هل تذكر كيف صمت للحظات، وأنا أنظر إليك شارد الذهن عنك، أتساءل أكانت بشرية وجوه واضعي قانون الأهالي قبل حوالي قرن من الآن؛ ذلك القانون الذي كنت قرأت علي منه هذه الفقرة: «إن الأهالي، مسلمين أو يهودا هم فرنسيون ولكنهم لا يحوزون حقوقا مدنية ولا حقوقا سياسية: إنهم يوزعون جنسية الرعية، بصفة افتراضية – كان ذلك في الأستوديو خلال مناقشة بيننا يوما عن الميز العنصري الذي يكرسه ذلك القانون تحت الاحتلال. كنت مثلك، لم تكرموا علي بشيء مما حققته. إنه جهدي. لذلك اعتقدت، كما تعلم أني لم أكن يوما فرنسيا، لا في السلوك ولا في الروح. تعرف؟ جادلت والدي يوما في أمر تجنسه فكان رده أنه فعل ذلك لأن العثمانيين، هنا، كانوا يهينون أجدادنا باعتبارهم ذميين لهم عليهم حق الحياة نفسه. وكانوا يفرضون عليهم الجزية. ويلزمونهم**

بلبس أثواب ذات ألوان صفراء. ثم خلص إلى أنه يكفينا مع النصارى أن نحافظ على ديننا ولغتنا، كما ينادي بذلك رجال الدين المسلمين".

(الحبيب السائح، ٢٠١٨: ٢٠٥-٢٠٦)

وفي رواية (النوبي) لـ(ادريس علي) التي تناقش قضية النوبيين وما تعرضوا له من تهجير وكيف كانت روح الانتماء جلية ومترسخة لديهم، عبر شخصية الجد حينما رفض فكرة التهجير من السودان الى مصر. فهي- أي الرواية- تعالج قضية البحث عن هوية هذا الشعب التي تشظت بين السودان ومصر، ما خلفه التهجير القسري من ألام وعذابات لهذا الشعب. "**سرنا وجدي في اتجاه الباخرة خطواته ثقيلة جدا. وحزنه فادح. لم أر جدي من قبل بمثل هذا الحزن ولا حتى عندما غرق أحد أعمامي في واحدة من الفيضانات العالية. ولا عندما اكتسح فيضان مبكر كل زراعاتنا، عندما جاءت أنباء زواج عمي الثاني بسيدة قاهرية ولا عندما حل علينا موسم شح فيه الطعام لدرجة المجاعة. ولا في أكثر الظروف قسوة ومدعاة لليأس. كان جدي شامخا ومتماسكا. لكنه الآن ينهار وهو يغادر المكان. صار حزنه بلا نظير وبدأ يدندن بأغنية سودانية بعد تحريفها: «حبيت علشانك كيشي حبيت ديارى علشانك** "(علي، ٢٠٠٨: ٨٩). هذا الحزن والألم الذي يكابده الجد لا يعكس مشاعره هو فقط بل هو تعبير عن معاناة شعب كامل تم اقتلاعه من جذوره، ليتم غرسه بطريقة قسرية بارض أخرى." هوية شعب ضائعة بين بلدين، فالنوبي ليس مصرياً ولا سودانياً ولا عربياً ولا أفريقياً، بل إنسان تشكل من عذابات المكان والزمان" (سليم، مقال الالكتروني، (http://www.alkhaleej.ae/articles/show_article.cfm?val=٩٤٧٣٤). تاركاً خلفه تاريخه وذكرياته التي انتزع منها بالقوة." **البواخر والناس تحولوا لكتلة صماء، لا أحد يغني أو يبكي أو يضحك. لحظة فراق مهيبة للمكان. والكلاب جنت .. تجمعت عند الشاطئ عدا كلبنا. حين صعدت الباخرتنا، سألتني أمي هلعة:**

- أين جدك ؟

- جدي ذهب للجبانات.

- كل هذا الوقت.

- سيأتي حالا .. لا تقلقي.

لكن الوقت مر حتى وصلنا للضحى وجدي لا أثر لـه. أمـي

صوتت تجمع الناس حولها مالك يا «آشة همد» ؟

- حاج «محمد مافي». والعمدة يتساءل في غضب

- اين الحاج «محمد» ؟ امسكت ذيل جلبابي في أسناني وركضت أقطع شارع «العلياب» الرئيسي كالبرق، وجدته هناك أمام دارنا فوق المصطبة يتوسد يده. وكلبنا يقعي حارسا دنوت منه حسبته مات وجدت وجهه مبتلا بالدموع. أكان يبكي نائما ؟ أم نام باكيا ؟ جدي .. جدي «هوى». تنبه مستغفرا لهزني

- ماذا تفعل هنا ؟

- وأنت ؟

لا شأن لكم بي

- الباخرة سترحل دوننا يا جدي. هيا أسرع .. الحق بها.

- يا جدي لا وقت للمزاح.

- لا أمزح. يا جدي

بكيت لطمت هدأني، احتضني قال بصوت حزين يشبه البكاء ليس الأمر سهلاً كما تظنون أبذا ليس سهلاً، كما تظنون أبدا ليس سهلا، إنه كخلع الضرس وبالذات ضرس العقل أنتم أخذتم المسألة ببساطة ويسر، أما نحن الشيوخ، أما أنا، فالمسألة مختلفة"(علي، ٢٠٠٨: ٨٩). **يشي هذا كلام للجد بما يحمله حدث انفصال هذا الشعب عن أرضه، وتشبثه بجذوره وكل تفصيلات حياتهم التي تركوها خلفهم.**

"- يا جدي .. مياه السد ستبتلع حتى الجبال.

- يضحكون عليكم"(علي، ٢٠٠٨: ٨٩).

يكشف هذا النص عن وعي الجد بما يحصل للشعب النوبي من عملية تهجير بدعوى بفيضان السد التي يرها الجد حجة لاقتلاعهم من ارضهم. في أحيان **كثيرة "تضطر الدول**

إلى انتهاج سياسات موجهة للهوية، أو ما نسميه بالهوية الموجهة سياسات تعليمية وبرامج حزبية وإعلامية تتوافق مع توجهاتها الأيديولوجية، أي القومية العربية، متجاهلة كل خصوصية قطرية أو إثنية أو حتى تاريخية، وفي معظم الأحيان دخلت في صراع وقمع كل هذه الخصوصيات والأقليات أكراد سوريا والعراق، الشيعة، أقباط مصر، و الأمازيغ في المغرب والجزائر ..." (مهنانة، دون تاريخ: ٣٧).

وفي رواية(من أنت أيها الملاك) لـ(ابراهيم الكوني) يتجلى الانتماء للصحراء الموطن الأصلي للبطل(مسّي) عبر هذا الحوار بينه وبين ابنه(يوجرتن).

" أطلق الابن ضحكة استهتار عالية. صالح لا أظنك تريد أن تخلق مني نبياً أيضاً! يكفي أن أخلق منك نزيهاً . النزاهة بناموس ! الأخيار نبوة ! حدق الابن في عين الأب لحظة. تمتم : يحزنني يا أبي أن أشكك في قواك العقلية! رمقه الأب بحزن . سأل :

– هل تنوي أن تزج بي في مستشفى الأمراض العقلية؟

نهض الابن وقف في مواجهة الأب. سأل جاداً :

ماذا يمكن لإنسان مثلي أن يفعل في مكان كالصحراء التي

تتغنى بها كأنها جنات عدن؟!

وماذا يمكن لإنسان مثلك أن يفعل في مدينة لا تعترف بها

– مدينة لا تعترف بي؟ لو كانت هذه المدينة تعترف بك ما بخلت عليك بالاسم ولكنّي ابن هذه المدينة يا أبت، ولم أكن يوماً ابن صحراء! بل أنت ابن صحراء شئت أم أبيت، لأن الدم الذي يجري في عروقك دم صحراء مهما أنكرته !".

(الكوني، ٢٠٠٩: ١٨٧–١٨٨)

أما رواية(ظل الأميرة)لـ(مصطفى الحمداوي)، التي تتناول مرحلة من مراحل نضال الشعب الأمازيغي ضد الاحتلال الروماني عبر المزج بين عوالم التاريخ والأسطورة، محاولة خلق عوالم تضيء حقبة مهمة من تاريخ معاناة الشعب الامازيغي في المغرب." **حب زهرة الجمر، وكان يمكنه أن يدوس بأقدامه على كلام المعلم ماسين ليرتبط بالمراهقة الفاتنة، ولكنه لم يفعل.. لقد شعر بأنه يحمل آمال الأمازيغ جميعهم على عاتقه، وأدرك بحق ملهم أن هناك**

أشياءَ عظيمة تتعلق بحياة الشعوب والمجتمعات تفوق في أهميتها حياة فرد، أو مشاعر فرد واحد" (الحمداوي، ٢٠١٧: ٢٦٦). يحمل هذا النص في طياته قضية الشعور بمسؤولية الحفاظ على هوية الشعب الامازيغي، وأن تكون هذه قضية مقاومة المحتل في مقدمة القضايا الخاصة بالأفراد، فقضية وجود وانتماء التاريخي وأرضه التي تعرضت للسلب من قبل الرومان. " **الشعب الأمازيغي تحمّل بمضاضة الميز الذي يمارسه الرومان، وقنع بالتعايش في أحسن الأحوال، وسكن الجبال وهوامش المدن ... الشعب الأمازيغي شعب مُسالم لا يحمل السلاح إلا مضطرا. وحين يشتد الظلم عليه، فإن هذا الشعب ينفجر كالبركان، ويتحول مقاتلوه إلى مقاتلين أسطورتين لا أحد يستطيع الوقوف في وجوههم**"(الحمداوي، ٢٠١٧: ٢٦٦).

لا شك أن العنف الأعمى والكبير الموجه ضد وجود الجماعات والشعوب الذي يبتغي طمس هويتها ومحو تاريخها، يدفعها- أي الشعب الامازيغي- الى أن تكون ردة فعلها أشد وأعنف الدفاع عن وجودها التاريخي والتعبير عن انتمائهم لهذا الوجود بعنف أقوى. إذ **أن** " **الاستعمار ليس آلة مفكرة، ليس جسما مزودا بعقل، وإنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى**" (فانون، ٢٠١٥: ٥٩). من قبل الجماعات التي تمارس حقها في الدفاع عن هويتها والتعبير عن انتمائها.

وفي رواية (ساق البامبو)لـ(سعود السعنوسي)

(*)، التي طرحت قضية انسانية حساسة، عالجتها ضمن قالب سردي يطرح أسئلة الهوية ويضيء على نقاط لم تضاء بشكل كاف كما يبدو؛ هذه الاسئلة الهوياتية التي ولدها النفي والرفض القائم أساساً على التحجر والتمركز حول هوية مركزية واحدة، لا تتقبل فكرة ذوبان الاعراق والاديان والاثنيات والحدود المكانية ضمن بوتقة الانسانية الواسعة التي بإمكانها أن تعمل على انصهار هذه المحددات كافة–الاعراق والاديان والاثنيات والحدود المكانية–، متناسية أن هناك انتماءً تفرضه الطبيعة البشرية بوصفه حاجة من الحاجات الأساسية للأفراد. وهو" **ظاهرة إنسانية فطرية تربط بين مجموعة من الناس المتقاربين والمحددين زماناً ومكاناً، بعلاقات تشعرهم بوحدتهم وبتمايزهم تمايزا يمنحهم حقوقا، ويُحتم عليهم واجبات، وهو متطور بالإرادة الإنسانية الباحثة عن الأفضل تطورًا يُنوع ويُوسع ويُربط دوائره بالحذف والإضافة وليس بالإلغاء ولا بالخلق الجديد**" (أحمد، ١٩٨٨: ١٤).

يجسد هذا النص انتماء البطل اللا شعوري لأبناء الكويت الذي يرى فيهم أبيه وامتداه الذي يمثله هو. "**انسحبت إلى النافذة المطلة على الشارع. حاملا كأس الشراب. أنظر إلى الشباب في موقف السيارات أمام البناية. يترجلون من سياراتهم. يتجهون إلى باب المدخل فرادى وجماعات صغيرة... يتهكم أحدهم على الشباب الكويتيين(...)يتمادى بسخريته على الناس في الكويت(...) يعب المتذمر ما تبقى من برشفة واحدة، يتحدث عن الكويتيين بغضب .. ينعتهم بصفات مزعجة(...) أتذكر أبي(...) صورته في مخيلتي محمولا على الأكتاف مغطى بعلم بلاده(...) أشعر بالضياع بين هنا وهناك(...) أكاد لا أعرفني. إبراهيم لا يرى الكويتيين بهذا الشكل.. لم يُخبرني بكل ذلك يستمر حديثهم(...)التفتت إلى المتذمر أقول: عُد إلى الفلبين إن كان الوضع ما لا يعجبك!**" (السعنوي، ٢٠١٢: ٣٠٩-٣١٠).

هذا الشعور بالانتماء لجذوره وأصوله لأبيه، كانت تفجر في نفسه حالة ولاء لشعب يرى أن جزءا كبيرا منه يمثله، حتى وأن لم يكن هذا الشعور مكتملاً بالاعتراف من قبل عائلته التي رأت في وجوده خزيها وعارها الذي أصرت على اخفائه عن الجميع؛ درئاً للفضيحة

التي يمثلها وجود فرد من أبناء عائلة(الطارف) بملامح فلبينية." **للكويت وجوه عدة(...) هي أبي الذي أحببت(...) عائلتي التي تتناقض مشاعري تجاهها(...)غربتي التي أكره. انتمائي الذي أشعر به إذا ما أساء أحدهم إلى أبنائها بصفتي واحدا منهم**"(السعنوي، ٢٠١٢: ٣٤٢).

إن انتماء(عيسى/ خوسيه) نابع من ارتباط داخلي فطري بوطنه وشعبه بصورة والده الذي رسمتها أمه لديه عبر أحاديثها التي روتها له عن أبيه، والتي كما يبدو من أحديث ومواقف وتصرفات (عيسى/ خوسيه) أنها غرست في ذاته مشاعر حب ولهفة للاندماج والذوبان في فضاء الوطن. إن هذه الرواية كشفت الكثير من انساق الانتماء للبطل (عيسى/هوزيه) لجذوره الكويتية. والتي تجلى جزء منها عبر هذا النص." **اقشعر بدني رعشة تسللت من أعماقي إلى أطرافي ما إن شرع لاعبو المنتخب الكويتي بترديد النشيد الوطني (...)وجدتني أترنم بلحن النشيد (...) شعور لا يمكنني وصفه ذلك الذي ينتابني**"(السعنوي، ٢٠١٢: ٣٥٩).

إن شعوره بالولاء والانتماء لوطنه سيطر على أحاسيسه. فلطالما كان النشيد الوطني يمثل للأفراد جسر الولاء والحب والانتماء للأوطان. وهذه المشاعر الفطرية هي التي جعلته يتحيز للمنتخب الكويتي وطن أبيه على حساب منتخب الفلبين."**ركلة سددها اللاعب الفلبيني ستيفان شروك استقرت في مرمى المنتخب الكويتي(...)الجميع يصفق بفرح إلا أنا الذي كنت أشعر بأنني ركلت الكرة في مرماي(...) أحبط الجميع في الدقيقة الـ٦١ عندما سجل يوسف ناصر هدفا لصالح منتخب الكويت**"(السعنوي، ٢٠١٢: ٣٩٦).

لاشك أن حالة الانتماء تنمو تتجذر حينما ينخرط الفرد في جماعة يتحد معها، ويكون جوده متقبل فيها، فضلاً عن أنها تشعره بأنه يمثل جزءً أساسياً من كيانها. "**كنت أجلس على مقربة منهم بينهم وبين مياه البحر. مقابل ويليز – روك. أراقبهم بسمعي. وعندما ابتعدوا وشرعوا في الغناء أمام المنتجع المغلق، أسفل شجرة جوز هند شاهقة الارتفاع،**

وجدتني غير قادر على منع نفسي من الذهاب إليهم: سلام عليكم(...) ألقيت تحيتي كما علمتني أمي. نظروا إلي، بعد أن نظر واحدهم إلى الآخر. بصوت واحد أجابوا:

- وعليكم السلام

خشيت أن يكونوا سكارى ولكنهم، باستثناء واحد منهم، لم يكونوا كذلك ابتسمت:

- أنتم من الكويت.. أليس كذلك؟

تبادلوا النظرات فيما بينهم مندهشين قال أوسطهم

- نعم.. كيف عرفت ذلك؟ (...).

- أنا أعرفكم سيدي"(السعنوي، ٢٠١٢: ١٥١-١٥٢).

عبر هذا الحوار بين (عيسى/خوسيه) والشباب الكويتيين يتجلى الميل بل الشوق الكبير لدى البطل، للانخرط في هذا المجتمع والتماهي معه، والشعور بأنه جزء منه، مع أنه لم يتصل بوطنه لا مكانيا ولازمانيا، وهذا ما تجده الباحثة يعمق فكرة الانتماء لدى(عيسى/ خوسيه)، فمن الطبيعي أن يشعر الفرد الكويتي الذي يحمل الجنسية الكويتية وينتمي الى القومية العربية و تتوافر فيه كل شروط المواطنة الموضوعية، من الطبيعي أن يشعر بانتمائه الى دينه وقوميته وبالتالي الى بلده، وذلك لأن كل متقدم هو دعامات أساسية لتأصيل عمق الانتماء، إلا أن هذا العمق في الانتماء يأتي من فرد بمثل معطيات ظروف(عيسى/خوسيه)، فيما يتعلق بالعرق والنشأة وعدم وجود حلقة للتواصل مع بلده ،فهو يعد حالة عميقة من حالات الانتماء.

وتظهر حالة الانتماء والتشبث بالجذور لدى فئة وهي (البدون)[*]، التي عانت الكثير من الصراعات والتهميش طوال تاريخها المرير. إذ حرص الروائيون على القاء الضوء الفاحص على هذه المعاناة عبر مجموعة من الروايات التي كتبها روائيون ينتمون لهذه الجماعة(البدون) وآخرون لا ينتمون لها إلا أنهم استطاعوا تعرية الكثير من انساق الاضطهاد والاقصاء والتهميش الذي مورس عليهم. بالمقابل لم يثن كل ذلك من ولائهم لوطنهم وتشبثهم بالبقاء على أرضه.

ومن هذه الروايات، رواية (المسطر) لـ(ناصر الظفيري) إذ يتجلى الانتماء للكويت عبر هذا النص." **فأسرع إليه الحارس ليسكته. لكن صوت الشاعر ارتفع أكثر فسقط الحارس فوقه وتعالت أصواتنا نحاول التفريق بينهم ثم صمتنا وأحدهم يطرق الحائط المؤقت الذي يسد باب العنبر "هنا. اكسر هذا الحائط" كان الصوت صوت امرأة وخلال دقائق أزاح الحرس الجدار وضابط السجن ينظر بحنق إلى الحارس الذي كلّف بمراقبتنا و يشير إلى الشاعر بعينيه الزائغتين. جلس الفريق الأجنبي معنا لأكثر من ساعتين ياما عن كل شيء ويختتم حديثه هل ترغب بالهجرة إلى أوروبا؟" وافق الجميع وحين جاء دوري قلت "لا. سأبقى هنا"**(الظفيري، ٢٠١٧: ٦٠). يجسد هذا المشهد الإصرار على البقاء والتشبث بالأرض التي لم يحصل على حقه المشروع والطبيعي فيها، وبالاعتراف بجوده الرسمي الذي يتمثل بحصوله على الجنسية الكويتية، وبكونه مواطناً كويتياً، إذ أن" **المواطنة صلة اجتماعية وقانونية(...)بين شخص ودولة، وتجعله يمتلك حقوقا... شرط أن لا يكون محروماً كليا من ممارسة هذا الحق بسبب الحرمان من حقه القانوني الاساسي(الحرمان من الجنسية)**" (ولديب، ٢٠١١: ٥٩). "ابتسمت بوجهه وكأنني أؤكد له شكوكه بأنني الجاسوس الذي زرعوه ليراقبه. بعد أقل من شهر رحل زملاء عنبر الشعراء إلى بلدان جديدة وبقيت وحدي. اقترب مني الضابط وهو يقول بحزن "لماذا لم ترحل معهم يا بني؟" " ولماذا أرحل؟" "هناك حياة أفضل لكم". "لم تعد لي رغبة بالحياة. ما بدأ هنا يجب أن ينتهي هنا"(الظفيري، ٢٠١٧: ٦٠).

يبدو أن البطل لا يجد مهرباً من حالة الانغماس مع شعور الولاء للأرض الذي ينازعه حتى بعد الفناء، ويبدو أن هاجس الأمل في الحصول على الجنسية الكويتية يتملكه الى حد كبير جداً، حتى وأن تلاشى وجوده الحقيقي في الحياة "**هل تعتقد أنني نادم لأنني أعطيتهم كل شيء؟" بالتأكيد أنت نادم "،لا يا رومي لست نادما ولكني حزين، حز يكذبون وهم يأخذون كل شيء. في الحرب السابقه زارنا مسؤول كبير وقال لنا أنتم أبناء هذا الوطن وحين ترجعون ستنتهي أمور "أنت نادم لهم كانوا تجنيسكم، عدنا أحياء وشهداء ولم يلتق بنا أو يهتم بنا أحد" لن ترجع إليهم ستبقى هنا معي وستأتي**

نجمة أيضا لتعيش "لن ترجع إليهم ستبقى هنا وستأتي نجمة أيضا لتعيش معي معك". نهض الخال من مكانه وألصق جسد محسد رومي ووضع يده كتفه على "لا تتركني أموت غريبا هنا، حين موت أعدني إليهم هؤلاء الذين يكذبون. إنهم أهلي وأريد أن أبعث في قيامتي معهم" ابتسم رومي وهو يعرف أن الخال لا يحتمل البعد في الموت كما لم يستطع البعد في الحياة"(الظفيري، ٢٠١٧: ٢٢٧). يطلق البطل هنا صرخة مأزومة برفض التخلي عن الوطن الذي تخلى عنه و لم يتقبله بوصفته مواطناً كويتاً، بل عاش فيه يصارع النظرات الدونية والفوقية له ولجماعته مع ذلك هو يمارس أرقى وأنبل أشكال الانتماء الا وهو البقاء على ذات الأرض التي لم تحتضنه، حتى وإن فنيت الروح.

وفي رواية (في قلبي أنثى عبرية)لـ(خولة حمدي) يتجلى الانتماء لدى شخصية(ندى) الفتاة المسلمة/اليهودية، حينما قدمت يد المساعدة ل(أحمد)، أحد رجال المقاومة اللبنانية. **"وما لبثت ندى أن هبت في رشاقة لتفتح الباب وهي تسوي غطاء رأسها . فتحت الباب وتطلّعت إلى الشبحين الذين وقفا عند مدخل الحديقة(...)كان أحدهما يبدو غائبًا عن الوعي تقريباً، وقد أحاط صاحبة خصره بذراعه اليمنى(...) تسمرت أمام الباب في تردّد وهتفت من مكانها.**

– من هناك؟ أجابها الشاب في لهفة:

– أختاه(...) عذرًا على الإزعاج في هذه الساعة(...) لكن أخي مصاب في ساقه، والسيارة تعطلت بنا في شارعكم، ولا يمكننا الوصول إلى المستشفى(...) نحن غرباء عن المدينة... فهل يمكن لوالدك أو أحد إخوانك أن مناسب، وسرعان ما هتفت قبل أن تغيب في الداخل.

– انتظر قليلا... عيناه على نجمة داود التي تدلّت من سلسلة فضية أحاطت عنقها، فاتسعت عيناه دهشة. انتبهت ندى إلى تغيّر ملامحه، لكنها تجاهلت الأمر،(...) فتابعها حسان بنظراته في استغراب متزايد(...) إنها يهودية لا شك في ذلك. ولكنها استقبلتهما دون تردد ، وهي بالتأكيد تدرك إلى أي جهة ينتميان هل يكون في الأمر خدعة ما(...).

– يمكنك أن تجعله يستلقي على الطاولة (...)سأستدعي الطبيب فورا(...) ندت حركة بسيطة من أحمد تدلّ على استجابته إلى النداء، وفتح عينيه قليلا.

– لا تقلق(...) سيصل الطبيب قريبا (...) لم يكن واثقًا من ذلك تمام الثقة(...)

– لقد طلبت المساعدة من أخي(...) يمكنه أن يعاين جرح المصاب(...)حدق حسان بعدم استيعاب في الرجل الذي ارتدى زي راهب كنيسة ، وصليب من الحجم الكبير يتدلى من عنقه. كان في الأمر خلل ما (...)في البداية فتاة يهودية تُدخلهم بيتها، ثم تستعين براهب مسيحي لعلاج الجرح، وتقول بأنه أخوها !! ميشال درس التمريض قبل أن يلتحق بخدمة الكنيسة(...)وهو بارع في تقطيب الجراح... ." (حمدي، ٢٠١٣: ٣٩-٤٥).

يتجلى من هذا الحوار بين (ندى) و(أحمد)، أن اختلاف الأديان لا يؤدي الى نبذ الآخر أو التخلي عنه في أوقات الأزمات، فعلى الرغم من الأجواء الساخنة التي يعيشها لبنان بفعل مقاومته للاحتلال الاسرائيلي، والمناخات العنصرية المتأججة، إلا أن ذلك لم يمنع الانفتاح على الآخر، والمساهمة في بناء انموذج للتعايش والانتماء للوطن، بعيداً عن محددات الدين، إذ تبقى الهوية الوطنية هي من يحرك مشاعر الأفراد تجاه بعضهم البعض، والتعاطي مع الأحداث العامة في الوطن. **"توقفت ندى والتفتت إليه في اهتمام.**

– أنستي... أنت يهودية، أليس كذلك؟

نظرت ندى على الفور إلى نجمة داود التي كشفت أمرها منذ البداية، ولم تعلّق.

– إذن... لماذا تساعدينا؟ رفعت عينيها في انزعاج وهتفت

– وما شأن ديانتي بالعمل الإنساني؟ ألا يحثك دينك على الرحمة والرأفة وتقديم يد المساعدة إلى من يحتاجها ، مهما كان انتماؤه وعقيدته؟ أليست تلك رسالة جميع الأديان السماوية؟ ارتبك أحمد وقد أدهشه ردّها ، وخفض رأسه في خجل من نفسه. فتاة يهودية تُلقّنه درسا في الأخلاق!! لم يملك الا أن يتمم في اعتذار"(حمدي، ٢٠١٣: ٦٢)

عبر هذا النسق من الأفكار عن الغاية السامية للديانات السماوية التي تعلو فيها القيمة الانسانية على كل ما يأتي بعدها من محددات أياً كان نوعها وشكلها، ومهما كانت التباينات بالمعتقدات والأفكار والاجندات السياسية، وهذا يشير في الوقت ذاته، الى وجود الأرض الخصبة الصالحة لتقبل التعددية بأشكالها كافة.

وتأسيساً على ما سبق فإن الانتماء" **هو اتجاه يستشعر من خلاله الفرد بتوحده بالجماعة، وبكونه جزءًا مقبولا منها، ويستحوذ على مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي الذي يعش فيه**" (حمدي، ٢٠١٣: ١٢).

وهذا من شأنه توفير بيئة مناسبة لاندماج هذه الجماعات داخل محيط الأكثرية.

الخاتمة:

يتجلى لنا وعبر استقصائنا لأزمة الانتماء في رواية الأقليات العربية النتائج الأتية:

- وجود مشاعر الانتماء في ظل وضع رافض وساخط لأبناء الأقليات هو ما وجدنا أنساقه متوافرة عبر الكثير من النصوص الروائية–عينة البحث.
- –وجدت الباحثة عبر مقاربتها لمفهوم الانتماء الهوياتي لأبناء الاقليات في الوطن العربي أنها– أي الجماعات الأقلوية– تشهد صراعاً من أجل الحفاظ على وجودها ضمن مجتمعاتها.
- صعوبة الاندماج مع مجتمع الأغلبية، الذي يتحقق عادة إذا تولد الشعور لدى ابناء الاقليات بأنهم يعاملون لا على أساس العدالة المتساوية فحسب بل على أساس الاعتبار المتساوي ايضاً ومن شان ذلك أن يجعل الأقليات مدركة لأهمية وجودها الهووي في ظل مجتمع الاكثرية.

الهوامش:

[١] تتناول الرواية الحاصلة على جائزة البوكر عام ١٠١٣، قضايا الاقليات الموجودة في الكويت عبر حكاية تتناول قضية انسانية تتعرض لها بعض الفئات من مثل العمالة الاجنبية الوافدة وأيضاً قضية

عديمي الجنسية أو البدون. عبر شخصية محورية هي(عيسى/ خوسيه/ هوزيه) الابن الذي كان ثمرة زواج فتاة فلبينة تعمل بصفتها خادمة لدى أسرة كويتي.

٢ البدون، هي اختصار جملة" بدون جنسية" وتُفضل ترجمتها في الانجليزية إلى" أناس بلا وثائق"، ويشكلون مجموعة من الناس الذين يدعون أحقيتهم بالجنسية الكويتية، مستندين الى عدم ارتباطهم بدول أخرى، بينما تعدهم الكويت مقيمين بصورة قانونية، ويعد البدون جزءاً لا يتجزأ من دراسة المجتمع الكويتي، ويقدر عددهم بعشرة بالمئة من سكان الكويت. (بوغراند، ٢٠٢٢: ٢٩).

المصادر:

١. أحمد، فاروق (١٩٨٨): الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط.

٢. إدريس علي يبحث في رواياته عن هوية النوبة، هويدا سليم، مقال الالكتروني، http://www.alkhaleej.ae/articles/show_article.cfm?val=٩٤٧٣٤

٣. أيوب، كرنفال (١٩٩٧): تشكل سؤال الانتماء الهوياتي في الرواية العراقية، بحث منشور في مجلة الاستاذ. الهوية الثقافية والعولمة، محمد مظفر الأدهمي، مجلة أفاق عبية، عدد٣، ايار–حزيران.

٤. بدر، علي (٢٠٠٩): حارس التبغ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت.

٥. بوغراند، كلير (٢٠٢٢): عديمو الجنسية في الخليج : الهجرة والجنسية والمجتمع في الكويت، ترجمة: عبد الوهاب سليمان، تكوين، الكويت، الطبعة الأولى.

٦. التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي، (١٩٩١): تعليم الأمة العربية في القرن الحادي و العشرين" الكارثة أو الأمل " تحرير، سعد الدين ابراهيم، التقرير النهائي (عمان: منتدى الفكر العربي [الكويت]: الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية).

٧. الحبيب السائح (٢٠١٨): رواية أنا وحييم، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، دار ميم للنشر، تونس.

٨. حمدي، خولة (٢٠١٣): في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر.
٩. الحمزة، محمد (د. ت): انتماء وولاء ومحبة، مقال، موقع العربية الالكتروني،
١٠. خضير، عواد علي (٢٠١٦): أبناء الماء، أزمنة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى.
١١. زكي، بدوي احمد (١٩٧٨): معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت .
١٢. سعداوي، أحمد (٢٠١٣): فرانكشتاين في بغداد، منشورات الجمل، بيروت.
١٣. السعنوسي، سعود (٢٠١٢): ساق البامبو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى.
١٤. شعبان، عبد الحسين (٢٠١٧): الهوية والمواطنة: البدائل الملتبسة والحداثة المتعثرة: مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، الطبعة الأولى.
١٥. الظفيري، ناصر (٢٠١٧): المسطر، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى.
١٦. عبد اللطيف، محمد خليفة (٢٠٠٣): دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر.
١٧. عبد يسري (٢٠٠٨): رواية: الجاسوس ٣٨٨، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
١٨. علي، ادريس (٢٠٠٨): النوبي، الشركة العالمية للطباعة والنشر، الصفا الجديدة، الطبعة الاولى.
١٩. عماد، عبد الغني (د. ت): سوسيولوجيا الثقافة :المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة .
٢٠. العيبي، د. محمد قاسم (٢٠١١): الرواية العراقية وسردية الاختلاف، قراءة لوعي الذات والعلاقة مع الآخر، دار الفراهيدي، بغداد، الطبعة الأولى.
٢١. فانون، فرانو (٢٠١٥): معذبو الأرض، نقله إلى العربية: د. سامي الروبي، ود. جمال الأماسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط٢، مصر.

٢٢.كجه جي، إنعام (٢٠١٦): الحفيدة الاميركية، ، الجديد، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، بيروت.

٢٣.الكوني، ابراهيم (٢٠٠٩): من انتَ أيها الملاك، المؤسسة العربية للنشر، الطبعة الأولى، بيروت.

٢٤.معلوف، أمين (د. ت): هويات قاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى.

٢٥.مهنانة، إسماعيل (د. ت): في تفكير الهجنة مع إدورد سعيد: فتوحات ما بعد الحداثة،د.ط.

٢٦.ميكشيللي، اليكس (١٩٩٩): الهوية، ترجمة: علي وطفة، الوسيم ، الطبعة الأولى، دمشق.

٢٧.ناصر، عبد الجبار (٢٠١٤): اليهودي الأخير، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة.

٢٨.وطفة، علي أسعد (٢٠١٣): الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر، مجموعة باحثين.

٢٩.وطفة، علي أسعد (٢٠١٣): الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر– إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى.

٣٠.وطفة، علي أسعد (د. ت): الهوية وقضاياها في الوعي العربي: اشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية.

٣١.ولديب، سيدي محمد (٢٠١١): الدولة وإشكالية المواطنة :قراءة في مفهوم المواطنة العربية، دار الكنوز المعرفية، الطبعة الاولى، عمان.

٣٢.ولسون، كولن (١٩٨١): ما بعد اللا منتمي: فلسفة المستقبل، نقلها الى العربية: يوسف شرور، وعمر يمق، الطبعة الخامسة، دار الآداب، بيروت.